جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 28 العدد: 5 السنة: 2024
مجلة المعيار
EL MIEYAR

عبور الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى الأندلس – ظروفه أسبابه ونتائجه 479-496هـ/1086-1103م

The crossing of Almoravid Prince Yusuf bin Tashfin into Andalusia its circumstances, causes and consequences 479-496AH/1086-1103AD

أ.د. خالد حموم[1]
k.hammoum@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/03 تاريخ القبول: 2024/08/31 تاريخ النشر: 2024/09/15
Received: 03/07/2024 Accepted: 31/08/2024 published: 15/09/2024

ملخص:

يهدف هذا البحث للحديث عن ظروف جواز الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى الأندلس أربع مرات ابتداء من سنة 479هـ/1086م، بذكر الأسباب والنتائج التي تمخضت عن كل عبور لهذه الرقعة الجغرافية الهامة.

ونعالج فيه الإشكالية التالية: هل تمكن الأمير يوسف خلال عبوره المتكرر إلى الأندلس من إيقاف الزحف الصليبي على أراضي المسلمين؟ ونتطرق في هذا البحث لعبور الأمير يوسف للأندلس أربع مرات، نذكر فيها ظروف الجواز، أسبابه، وأهم الأعمال التي قام بها في هذه البلاد، والنتائج التي تمخضت عن كل عبور.

وقد تمَّ التوصل للعديد من النتائج أهمها على الإطلاق هو نجاح الأمير يوسف بن تاشفين في التَّصدي لحروب الاسترداد في الأندلس، وفي تنظيم أموره السياسية والإدارية.

الكلمات المفتاحية: المرابطون، يوسف بن تاشفين، الأندلس، حروب الاسترداد.

Abstract:

This research aims to talk about the circumstances of the Almoravid prince Yusuf bin Tashfin's passport to Andalusia four times starting in the year 479 AH/1086 AD, by mentioning the reasons and results that resulted from each crossing of this important geographical area.

In it, we address the following problem: Was Prince Yusuf able, during his repeated crossings to Andalusia, to stop the Crusader advance on Muslim lands? In this research, we discuss Prince Yusuf's crossing of Andalusia four times, in which we mention the circumstances of the passport, its reasons, the most important actions he undertook in this country, and the results that resulted from each crossing.

Many results were achieved, the most important of which was the success of Prince Yusuf bin Tashfin in confronting the wars of reconquest in Andalusia, and in organizing his political and administrative affairs.

Keywords: Almoravids ; Yusuf bin Tashfin ; Andalusia ; the Wars of Reconquista.

[1] جامعة محمَّد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر

1. مقدمة:

عانت الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) من ويلات حروب الاسترداد النَّصرانيَّة، خاصة بعد سقوط مدينة طليطلة في يد ملك قشتالة (Castile) ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) يوم 27 محرم 478هـ/25 ماي 1085م، فقد تعاظمت أكثر من ذي قبل، وأصبحت الأندلس مهددة بالسقوط.

فسارع أهلها خاصة أمرائها للاستنجاد بأمير المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين، فاستجاب هذا الأخير لندائهم وعبر للأندلس للتصدي لحروب الاسترداد النَّصرانيَّة فانتصر في معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م، واستمر في العبور بعد إلحاق الأندلس بدولته ثلاث مرات أخرى، لغرض مقارعة الممالك النصرانية وتنظيم شؤون هذا القطر الهام من دولته المترامية الأطراف.

ومن هذا المنطلق أطرح الإشكالية التالية: هل تمكن الأمير يوسف خلال عبوره المتكرر إلى الأندلس من إيقاف الزحف النَّصراني على أراضي المسلمين؟

تنطلق فرضية الدراسة من التأكيد على ذلك الارتباط القائم بين العُدوتين المغربية والأندلسيَّة، هاتان العُدوتين اللتان يفصلهما البحر الأبيض المتوسط (البحر الرومي) والذي كان محل اهتمام كبير من قبل الأمير يوسف بن تاشفين لغرض الجواز للأندلس برسم الجهاد في سبيل الله ومحاربة الممالك النَّصرانيَّة.

أروم من خلال هذا البحث إلى الحديث عن ظروف وأسباب عبور الأمير يوسف بن تاشفين للأندلس، والنتائج القريبة والبعيدة المدى التي انبثقت من عبوره المتكرر.

واستخدمت المنهج السردي، المنهج التَّحليلي والنَّقدي لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفيَّة، وأتطرق في هذا البحث لعبور الأمير يوسف للأندلس أربع مرات، أذكر فيها ظروف جوازه، أسبابه، وأهم الأعمال التي قام بها في هذه البلاد، والنتائج التي تمخضت عن كل جواز.

2. أوضاع بلاد الأندلس السِّياسيَّة قبل عبور المرابطين

1.2. أوضاع الإمارات الإسلاميَّة

تعرضت بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة الأمويَّة سنة 422هـ/1031م (ابن الوردي، 1996، ص319) إلى محنة عظيمة، حيث انقسمت هذه البلاد إلى حوالي ثلاث وعشرون دويلة، عُرفت بدويلات الطَّوائف الأولى، حيث استقل كل أمير أو وزير أو قاضي بمدينة من المدن وأعلن نفسه حاكمًا عليها، وقد انتشرت هذه الدويلات في أرجاء الأندلس وتكاثر عددها واختلفت توجهاتها ونزعاتها ممَّا ولَّد صراعًا عنيفًا ومتواصلًا فيما بينها، انتهى في كثير من الأحيان إلى معارك وحروب طاحنة، ويُعد هذا العهد من تاريخ بلاد الأندلس أكثر الفترات تعقيدًا وتشابكًا واضطرابًا (محمَّد سهيل طقوش، 2008، ص427).

وتلقَّب هؤلاء الأمراء المتغلبون بألقاب الخلافة كالمتوكِّل، المعتضد، المعتمد، والمستعين وغيرها، فجلب لهم ذلك هجاء الشُّعراء حيث وصفهم ابن رشيق القيرواني ساخرًا منهم بقوله:

مِمَّا يُزْهِدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فيها ومُعْتَضِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كالهِرِّ يَحكِي انتفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ (المرَّاكشي، 1998، ص53)

وبلغ عدد دويلات الطَّوائف الأولى حوالي ثلاثٌ وعشرون دويلة، تتفاوت فيما بينها من حيث القوَّة والضُّعف، برزت منها حوالي سبع دول رئيسية غلبت على جميع الدُّويلات الأخرى أو تحالفت معها (محمَّد سهيل طقوش، 2008، ص430) وتتمثل هذه الدُّويلات في: دولة بني جَهْوَر بقرطبة، برئاسة أبي الحزم بن جَهْوَر، الذي بايعه أهلها بالرِّئاسة بعد أن لمسوا فيه الخير والصلاح وحسن التَّدبير. دولة بني عبَّاد بإشبيلية، والتي أسَّسها محمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد سنة 414هـ/1023م وبلغت العظمة في عهد حفيده المعتمد بن عبَّاد بالخصوص بعد استيلائه على قرطبة، وأصبح أشهر أمراء الطَّوائف وأجلِّهم. دولة بني ذي النُّون بطليطلة، والتي تأسَّست عام 427هـ/1036م على يدِّ إسماعيل بن عبد الرَّحمان بن ذي النُّون. دولة بني هود بسرقسطة، أسَّسها المستعين بالله سليمان بن هود الجذامي سنة 431هـ/1039م. دولة بني عامر ببلنسيَّة، استولى عليها العنصر الصقلبي وحكمها مجاهد العامري، ثمَّ استولى عليها عبد العزيز بن عبد الرَّحمان شنجول عام 411هـ/1021م. دولة بني الأفطس ببطليوس، كان أوَّل ظهور لها سنة 413هـ/1022م عندما استولى الوزير عبد الله بن محمَّد بن مسلمة على حكم بطليوس. دولة بني زيري بغرناطة، والتي يرجع الفضل في إنشائها لزاوي بن زيري الصنهاجي مطلع القرن الخامس الهجري. وقامت في الأندلس دويلات أخرى ظهرت في تواريخ متقاربة، وانقرضت كذلك في تواريخ متقاربة لم ترق بعضها إلى مستوى دول الطَّوائف منها دولة ابن صمادح في المريَّة، والدَّولة الحمودية في مالقة والجزيرة الخضراء، ودولة بني برزال في قرمونة، ودولة بني طاهر في مرسيَّة وغيرها من الدُّول (ابن بلكين، 1955، ص16 وما بعدها) (ابن عذارى، 1983، ص153 وما بعدها).

وعلى العموم نقول أنَّ هذه الدويلات نمت كالفطريات في بلاد الأندلس، حيث كثر عددها وتنوعت ألوانها وأطيافها، ممَّا ولَّد صراعًا عنيفًا ومتواصلًا فيما بينها، أدى في نهاية المطاف إلى ضعف وتدهور أحوال جميع هذه الدول ممَّا شجَّع النصارى على شنِّ حرب ضروس على المسلمين في جميع بلاد الأندلس عُرفت بحروب الاسترداد.

2.2. أوضاع الممالك النَّصرانيَّة

ارتبطت نشأة الممالك النَّصرانيَّة وتطورها بحركة الاسترداد التي ظهرت في شبه الجزيرة الإيبيرية، هذه الحركة التي أخذت في النُّمو شيئًا فشيئًا وبدأت تأخذ شكلًا أكثر وضوحًا بعد سقوط الخلافة الأمويَّة وقيام دول الطَّوائف الأولى سنة 422هـ/1031م (ابن الوردي، 1996، ص319) وقد استغلت القوى النَّصرانيَّة ضعف هذه الدُّول وتفرق شملها وسوء أحوالها، فتطلعت للاستيلاء على أراضيها بقيادة ملكها سانشو الكبير (شانجة) (Sancho) الذي بسط نفوذه على الممالك النَّصرانيَّة في الأندلس واستطاع توحيدها تحت سيادته (أشباخ، 1996، ص11).

ورغم انهيار وحدة القوى النَّصرانيَّة بعد وفاة سانشو الكبير (Sancho) سنة 427هـ/1035م بتقسيم المملكة بين أبنائه الأربعة، إلَّا أنَّه سرعان ما عادت هذه الوحدة بفضل ولده الثَّاني فرديناند الأوَّل (Fernando I) الذي ورث من مُلك أبيه مملكة قشتالة (Castile)، ومضى يُوسِّع حدود مملكته على حساب إخوته واستطاع بعد انتصاره في معركة تمارون (Tamaron) سنة 429هـ/1037م (أشباخ، 1996، ص11) أن يضمَّ ليون (Leon) إلى أملاكه كما استولى على كل من جلِّيقيَّة (Galicia) وأشتوريش (Asturias) وما إليها وغدا بذلك أقوى ملك في الأندلس فأخذ على عاتقه حرب المسلمين، وخطا خطوة كبيرة في ذلك بحيث توسعت في عهده حركة الاسترداد وأضحت أكثر قوة من ذي قبل (دوزي، 1995م، ص79).

أمَّا إخوة فرديناند (Fernando) الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تعادل ثُلث مملكته؛ بينما في شرق الجزيرة كانت هناك إمارة برشلونة (Barcelona)، التي يحكمها الكونت رامون برنجير الأوَّل (Ramón Berenguer I)، وبلغت الممالك النَّصرانيَّة في ذلك الحين خمس ممالك (أشباخ، 1996، ص12)، في مقابل ذلك كان عدد إمارات المسلمين في الأندلس حوالي ثلاث وعشرون إمارة، وهذا دليل على قوة الممالك النَّصرانية وضُعف دويلات الطَّوائف التي تفرقت كلمتها وتشتت جمعها.

ولم تتنفس دويلات الطَّوائف الصعداء إلَّا بعد وفاة فرديناند الأوَّل عام 458هـ/1065م (ابن عذارى، 1998، ص239) وانقسام أمراء النَّصارى على أنفسهم، بحيث تفرق شمل أبناء فرديناند (Fernando)، وانشغلوا بخلافاتهم وتخلوا بصفة مؤقتة عن حرب المسلمين الذين كانوا بدورهم منشغلين بعداء بعضهم البعض كسابق عهدهم (حسن أحمد محمود، د.ت، ص252)، واستمر انقسام النَّصارى مدَّة من الزمن إلى أن عادت وحدتهم بزعامة ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) الذي سلك مسلك آبائه في التَّمكين لحركة الاسترداد.

وقبل أن يمضي ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) في حرب أمراء الطَّوائف بذل جهودًا شاقة في محاولة جمع أطراف مُلك أبيه فاستولى على ليون (Leon) وجلِّيقيَّة (Galicia) بعد وفاة أخيه شانجة (Sancho)، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقعة في وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر التاجة، واستطاع أن يجمع كلمة أراغون (Aragon) ونافارا (Navarra)، وأن يقوم بتوطيد علاقته بالكنيسة الرُّومانيَّة وعموم القوى النَّصرانيَّة في أوروبَّا، فاتخذت بذلك حركة الاسترداد طابعًا صليبيًا ترعاها كنيسة روما (Rome) وتباركها وتدعو لها وتجند النَّصارى من أجل المشاركة فيها. (حسن أحمد محمود، د.ت، ص252-253).

وبعد أن قوي نفوذ ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) بين الممالك النَّصرانيَّة عاد لخوض حروب الاسترداد ويمهِّد لها السُّبل لتحقيق أهدافها المتمثلة في القضاء على تواجد المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيريَّة، فاشتدت هجماته على المدن الأندلسيَّة، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة فإذا عجزت أو امتنعت عن دفع الإتاوة هاجمها وحاصرها حتَّى يشتد عليها البلاء فتذعن للأمر الواقع، وتستسلم له بلا قيد أو شرط (عصام الدِّين عبد الرؤوف الفقي، 1999، ص255)..

3. الجواز الأول للأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

تعاظمت حروب الاسترداد النَّصرانية في الأندلس مع سقوط طليطلة يوم 27 محرم 478هـ/25 ماي 1085م أكثر من ذي قبل، فقد هدَّد ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) جميع دويلات الطَّوائف بالسقوط.

على الرغم من كون هذه الدويلات سارعت لنيل رضاه عن طريق تقديم الهدايا، الضرائب، والتنازل عن بعض القلاع والحصون على الثغور، إلَّا أنَّ ألفونسو السادس (Alfonso VI) لم يقنع بذلك واستمر في تهديد ملكهم بالزوال، وقام بشنّ الغارات على جميع بلاد الأندلس واستولى على الأراضي الواقعة على ضفتي نهر تاجة، وعلى قلعة رباح، ومدينة قورية وحاصر سرقسطة ورفض الأموال السَّخيَّة التي عرضها صاحبها عليه (حسن أحمد محمود، د.ت، ص255) وهدَّد بطليوس وصاحبها المتوكِّل بن الأفطس الذي أرسل إليه يطلب منه أن يُسلِّمه بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الضَّريبة، فرفض المتوكِّل التهديد ورد عليه برسالة تفيض شجاعة ونبلًا، ولمَّا رأى أنَّه غير قادر على مدافعة ألفونسو (Alfonso) ومجاراته لوحده بعث برسالة إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين يُصوِّر له محنة الأندلس ويستنصره على عدوه ملك قشتالة (Castile)، وقد وعده الأمير يوسف بالجواز والإمداد على العدوِّ (مجهول، 1979، ص33 وما بعدها).

ولم يكتف ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) بتهديد مدن الثغور مثل سرقسطة وبطليوس فحسب، بل قام بتهديد باقي المدن مثل قرطبة وإشبيليَّة اللَّتين يحكمهما أقوى ملوك الطَّوائف المعتمد بن عبَّاد وحاول إذلاله بشتى الطرق، كفرض الإتاوة، وطلب التنازل عن القلاع والحصون وغيرها، والزحف نحو إشبيلية حيث خرب ودمر في طريقه حتَّى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلًا: "هذا آخر بلاد الأندلس قد وطأته" (ابن الخطيب، 1975، ص351) ومن هناك أرسل إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين خطابًا يتوعده فيه بالهزيمة في حالة عبوره لنجدة إخوانه بالأندلس، فأمر يوسف بن تاشفين أن يكتب إليه على ظهر كتابه "جوابك يا أذفنش (Alfonso) ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله"، وأردف الكتاب ببيت للشاعر المشهور أبي الطيِّب أحمد المتنبي:

ولا كُتُبَ إِلَّا المشْرَفِيَّةُ والقَنَا وَلاَ رُسُلٌ إِلَّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ (ابن الكردبوس، 1971، ص91).

وشاع في الأندلس أنَّ المعتمد بن عباد أراد الاستنجاد بالمرابطين، ولقي معارضة من خاصته ووجوه دولته الذين رأوا بمعاهدة ألفونسو (Alfonso) وعقد السلم معه (مجهول، 1979، ص44) وقد تبنى هذا الرأي أيضًا ولده الرَّشيد أبو الحسن الذي قال لأبيه: "يا أبتِ أتُدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا مُلكنا، ويبدِّد شملنا" فأجابه المعتمد فقال: "أي بني، والله لا يسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنَّصارى، فتقوم علي اللَّعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري" وقال أيضًا: "حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير" (ابن خلكان، 1994، ص115).

فقام المعتمد بالاتصال بكل من ابن الأفطس صاحب بطليوس، وابن بلكين صاحب غرناطة، وطلب أن يرسل كل واحد منهما قاضيًا لتشكيل بعثة تذهب إلى المغرب لمقابلة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكانت هذه البعثة برئاسة القاضي ابن أدهم

وبحضور وزير المعتمد ابن زيدون (الحِميري، 1975، ص288) وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي حملا معهما رسالة مكتوبة من المعتمد بن عبَّاد إلى الأمير يوسف يستنجده فيها ويستدعيه للأندلس ليدفع عنه ألفونسو السَّادس (Alfonso VI)، ولمَّا وصلت الرُّسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم، وجرت بينهم محادثات ومفاوضات (عنان، 1997، ص318) وكان الأمير يوسف يعدهم خيرًا، بعد أن رقَّ قلبه لحالهم وحال بلادهم، وبعد مشاورة حاشيته وافق على العبور إلى الأندلس لنصرة إخوانه في الدِّين (André Clôt, 1999, p196-197).

عندما عبر جميع أفراد الجيش المرابطي إلى الأندلس لحق بهم الأمير يوسف في يوم الخميس منتصف ربيع الأوَّل 479هـ الموافق ل 30 جوان 1086م وضمَّ لهم جيش دويلات الطوائف، واتجه إلى بطليوس بغرب الأندلس لقتال ملك قشتالة (Castile) ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) الذي حشد من أمم الروم جيشًا لا يحصيه إلَّا الله، بلغ تعداده مئة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل (ابن أبي زرع، 1972، ص149)، وحوالي ثمانين ألف فارس لابسين الدروع دون غيره (مجهول، 1979، ص56).

ووقع الصِّدام بين قوى النَّصارى والمسلمين في سهل الزَّلاقة صباح يوم الجمعة 12 رجب سنة 479هـ الموافق ل 23 أكتوبر 1086م (ابن الخطيب، 1975، ص351) وكان النصر حليف المسلمين، وأسفر هذا الانتصار على العديد من النتائج منها عودة الثقة والأمل إلى نفوس أمراء الأندلس، وتحررهم من الخضوع لملك قشتالة (Castile)، وتوقفوا عن دفع الإتاوة والتنازل له عن الكثير من الأراضي والحصون (عنان، 1997، ص362). فك الحصار عن الكثير من مدن شرق الأندلس مثل بلنسيَّة وسرقسطة حيث تفرغت جيوش النَّصارى واستنفرت كامل قوَّاتها لمعركة الزَّلاقة غرب الأندلس (ابن الكردبوس، 1971، ص92). بالإضافة إلى استيلاء المسلمين عمومًا وأهل الأندلس خصوصًا على الكثير من الغنائم والأسلاب، غير أنَّ هذه النتائج الخاصة لا تُعد شيئًا إذا قيست بالنتائج العامَّة البعيدة المدى المتمثلة في إيقاف زحف النَّصارى الجارف على الأندلس المسلمة، بعد أن كان يُنذرها بالمحوِ والفناء العاجل وغنم الإسلام بذلك حياة جديدة في بلاد الأندلس (عنان، 1997، ص362).

وفي المغرب ساعد نصر الزَّلاقة الأمير يوسف بن تاشفين على حل مشاكله الداخليَّة بحيث خضعت له القبائل التي ظلت مترِدِّدة في ولائها للمرابطين، وبعض القبائل الزنَّاتية الأخرى التي كانت تتربص بهم، فكان نصر الزَّلاقة كفيلًا بترهيبها فعادت إلى طاعتهم من جديد. وعلى صعيد العالم الإسلاميّ عمَّت الأفراح أرجاءه وأعتقت الرقاب وشُبِّه يوم الزَّلاقة بيوم اليرموك والقادسية، وارتفع شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين وأثنى عليه العلماء والفقهاء ثناءً كبيرًا، خاصة الإمام أبو حامد الغزالي (حسن أحمد محمود، د.ت، ص284).

كما نتج عن هذه المعركة مقتل خيرة رجال ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) وجميع أبطاله، وحُماته وقواده ولم ينج مع ملك قشتالة (Castile) ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) إلَّا نفرٌ يسيرٌ من أصحابه، ولحسن حظه أنَّ الأمير يوسف فضل عدم تتبع فُلول جيشه المنهزم الذي فرَّ إلى طليطلة للتَّحصن بها (الحميري، 1975، ص291).

4. الجواز الثاني للأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

بعد عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب مباشرة بعد نصر الزَّلاقة، اضطربت أحوال الأندلس من جديد، حيث عاد أمراء الطَّوائف إلى سابق عهدهم من الاختلاف والتنازع، وافتراق الكلمة، وحتَّى الاتصال بالعدوِّ (ابن بلكين، 1955، ص106)، فشجع هذا الوضع النَّصارى على محاولة النهوض من جديد والتَّخلص من آثار هزيمة معركة الزَّلاقة، فقام ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) باختيار الجبهة الأكثر ضعفًا في الأندلس، فاتجه نحو الشرق حيث إمارات بلنسيَّة، مرسيَّة، لورقة، والمريَّة وقام بتشديد الخناق وشنِّ الغـارات عليها، وكانت هذه الغارات تنطلق من حصن لييط (Aledo) الذي استولى عليه ألفونسو (Alfonso) وشحنه بالخيل والرِّجال والرُماة وأمرهم أن يَشُنُّوا هجماتهم على بلاد ابن عبَّاد دون سائر بلاد الأندلس (ابن أبي زرع، 1972، ص152).

وقد حاول المعتمد بن عبَّاد وضع حدٍّ لغزوات النَّصارى المتحصنين بحصن لييط بقيادة غرسية خمينس (Gharsia Khamenes) (عنان، 1997، ص334) فنظَّم جيشًا بقيادة أحد أبنائه يضمُّ ثلاثة آلاف فارس واتجه إلى لورقة فاعترضه جيش قشتالي (Castilian) وألحق به الهزيمة (دوزي، 1995، ص138).

وهكذا بدت مناطق شرق الأندلس بعد الزَّلاقة مباشرةً وكأنها على شفير الهاوية والسقوط بيد النَّصارى، فاضطر أهل الأندلس للاستنجاد مرةً أخرى بالأمير يوسف بن تاشفين، وأخذت الوفود الشعبية وعلى رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثةً به لإنقاذ الأندلس من جديد، وعبر ابن عباد بنفسه فلقي الأمير يوسف بمحاذاة وادي سبو، فشكا إليه ما كان يقوم به النَّصارى المتحصنين بحصن لييط (Aledo) من غارات ونهبٍ لممتلكات المسلمين (ابن بلكين، 1955، ص108) فوعده بالجواز والوصل إليه (ابن أبي زرع، 1972، ص152).

عبر الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس واستقر بالجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأوَّل سنة 481هـ/1088م واستقبله المعتمد بن عبَّاد هناك بالهدايا والمؤن الوفيرة (ابن أبي زرع، 1972، ص152)، وجمع الجيش الأندلسي مع جيشه واتجهت جموع القوى المتحدة صوب حصن لييط (Aledo)، الذي يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة، وشرعوا في قتاله والتَّضيِّيق عليه، حيث ضربوا على حاميته الضَّخمة التي تضمُّ ثلاثة عشر ألف مقاتلًا حصارًا من كل ناحية، وشنُّوا عليه الحرب ليلًا ونهارًا (مجهول، 1979، ص69)، وكان كل أمير يهاجم بدوره ويقاتل حسب مجهوده وما تبلغ استطاعته وحيلته (ابن بلكين، 1955، ص108)، كما قطعوا الأقوات على المحاصَرين، وأذاقوهم البأس والشدة، واستمروا في الحصار مدَّة أربعة أشهر، استبسل فيها المعتصمون بالحصن استبسالًا منقطع النَّظير، وتكبد المسلمون خسائر فادحة جراء انقضاض النَّصارى المحاصَرين عليهم بين آونة وأخرى (أشباخ، 1996، ص96) والشيء الذي زاد الأمر تعقيدًا هو انشغال أمراء الطَّوائف بمصالحهم الذاتية، وكان معسكرهم مركزاً للمكائد والخلاف والوقيعة (دوزي، 1995، ص139)، فأدَّى ذلك إلى اختلال أمر المعسكر الإسلامي، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أنَّ ملك قشتالة (Castile) يسير في قوة كبيرة لإنجاد الحصن، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليّين (Castilians) في معركة غير مجدية (عنان، 1997، ص336).

وقدم ألفونسو (Alfonso) إلى الحصن فلم يجد بداخله من المدافعين عنه سوى مئة فارس وألف راجلٍ (أشباخ، 1996، ص96)، ولمَّا رأى أنَّه لا فائدة من الاحتفاظ به، وأنَّه يقتضي لذلك حامية كبيرة قرَّر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه، وعاد أدراجه إلى طليطلة، فاسترجع ابن عبَّاد الحصن بعد أن تركه النَّصارى أطلالًا (ابن أبي زرع، 1972، ص153).

ولم يجد الأمير يوسف أمامه خيارًا آخر غير الرجوع إلى بلاد المغرب، تاركًا جيشًا مرابطيًا من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة لصدِّ غارات النَّصارى على منطقة مرسيَّة وبعث لنفس الغرض جيشًا آخر إلى مدينة بلنسيَّة بقيادة محمَّد بن تاشفين (مجهول، 1979، ص70).

وعن نتائج هذه المعركة فقد اختلف المؤرخون أيَّما اختلاف في تحديدها، حيث صوَّر بعضهم الانسحاب على أنَّه هزيمة للمرابطين وحلفائهم الأندلسيِّين ونصرٌ للجبهة النَّصرانيَّة، وصوَّره البعض الآخر على أنَّه فوزٌ وظفرٌ للمسلمين، فالذين يقولون إنَّ المسلمين انهزموا في المعركة يُرجعون ذلك إلى عدم تمكن قوات المسلمين من فتح الحصن وإخضاعه بالقوة، رغم طول مدَّة الحصار التي بلغت حوالي أربعة أشهر، ولاستبسال النَّصارى في الدفاع عليه، وإلحاقهم الأذى في بعض الأحيان بقوات المسلمين، وكذلك لانسحاب قواتهم عند مجيء ملك النَّصارى ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) بجيشه لتخليص الحصن، حيث ساد الارتباك والظنون في معسكر المسلمين.

وأهم الأمور التي تُبين انهزام القوَّات المرابطيَّة والأندلسيَّة المتحالفة هو ذلك النزاع والشِّقاق الذي ظهر بين أمراء الطَّوائف، حيث عصفت رياح الفُرقة بينهم، بالخصوص بين المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيليَّة وابن رشيق صاحب مرسيَّة، هذا الأخير الذي أُتهم بموالاة النَّصارى والتَّحالف معهم سرًا، فأدى ذلك إلى نكبته من قبل المعتمد بن عبَّاد، فخلَّف ذلك اضطرابا كبيرًا بتمرد أهل ابن رشيق على القوَّات المتحالفة (مجهول، 1979، ص70)؛ كما ظهرت منازعات بين المعتمد بن عبَّاد والمعتصم بن صمادح صاحب المريَّة، وبين ابن بلكين صاحب غرناطة وأخيه تميم صاحب مالقة (ابن بلكين، 1955، ص110).

كما أدت معركة حصن لييط (Aledo) إلى سخط الرعية على أمرائها الذين أثقلوا عليهم بطلب المزيد من المؤن والأقوَّات لإعطائها للقوَّات المحاصِرة للحصن، ويُصوِّر لنا ابن بلكين هذه الأوضاع المزرية والتي أدت إلى فشل المسلمين في إحداث النَّصر أصدق تصوير حيث يقول "وطالت تلك المحلَّة الملعونة، وأبان الطيِّب من الخبيث وكُشفت العورات، فلم يزدد الرؤساء إلَّا توحشًا ولا الرعية إلَّا تسلطًا، ولا الداخلون على مثل هذه النِّصبة إلَّا طمعًا، وحُقَّ لهم مع اختلاف كلمة الرؤساء" (ابن بلكين، 1955، ص110).

أمَّا الذين يرون أنَّ المسلمين حقَّقوا في معركة حصن لييط (Aledo) نصرًا ولو كان نسبيًا، فهم يُرجعون ذلك إلى استيلائهم على الحصن في نهاية المطاف، رغم أنَّه كان خرابًا وأصبح أطلالًا ويتحجَّجون أيضًا بذكر تلك الرَّسائل المتبادلة بين المعتمد بن عبَّاد والمعتصم بن صمادح التي تصف هذا الفوز وتُشيد به، كما أنَّ ابن حمديس الصِّقليّ (sicilien) وهو شاعر معاصر هنأ المعتمد بهذا الفتح، وأنشد بين يديه قصيدة تُصوِّر هذا الظفر الذي حقَّقه المسلمون (حسن أحمد محمود، د.ت، ص293-294).

كما أنَّ المسلمين ألحقوا ضررًا كبيرًا في صفوف مقاتلي الحصن، حيث تمَّ القضاء على جُل النَّصارى المتحصنين هناك، فمن بين ثلاثة عشر ألف مقاتل لم ينج منهم سوى نفر قليل حوالي مئة فارس وألف راجلٍ (ابن أبي زرع، 1972، ص153).

5. الجواز الثالث للأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب بعد أن انتهى من حصار حصن لييط، وقد تغيرت نظرته تجاه أمراء الطَّوائف، الذين شغلوا وقتهم في التَّنازع والتَّباغض، وانصرفوا عن الجهاد وردِّ العدوان على بلادهم.

وأدرك الأمير يوسف استحالة إصلاح هؤلاء الأمراء المتخاذلين، وتبيَّن له أنَّ الاستمرار في إيقاف زحف النَّصارى على بلاد الأندلس لا يتحقق إلَّا بالتخلص من هؤلاء الأمراء الذين ثبتت خيانتهم للمسلمين، وموالاتهم لأهل الكفر.

ففي أوائل سنة 483هـ/1090م عبر الأمير يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس للمرة الثَّالثة برسم الجهاد (ابن أبي زرع، 1972، ص153)، ولم يكن عبوره هذه المرة تلبيَّةً لدعوة أو استغاثة من أمراء الأندلس كما حدث في المرتين السَّابقتين، وإنَّما لتلبيَّة دعوة فقهاء الأندلس وقضاتها الذين طالبوا بإنقاذهم من أمرائهم العاجزين على محاربة الممالك النصرانية (M. EL Fasi,1990, p381) والمنغمسين في حياة التَّرف واللَّهو، وكذا النِّزاع والشِّقاق بين بعضهم البعض (حسن أحمد محمود، د.ت، ص300).

ولمَّا أدرك الأمير يوسف أنَّ أمراء الطَّوائف غير مخلصين في جهادهم، قرَّر العبور إلى الأندلس من أجل خلع هؤلاء الأمراء، وإنقاذ الأندلس من خطر النَّصارى (عنان، 1997، ص337)، وقد شجع الأمير يوسف صدور فتاوى من فقهاء الأندلس والمغرب والمشرق تقر مشروعية خلع أمراء الطَّوائف والتَّخلي عن نصرتهم وتحضه على تحقيق مبدأ العدل والتَّمسك بالخير، ومن بين الفُقهاء الذين أفتوا بشرعية القضاء على أمراء الطَّوائف كلٌ من أبي بكر الطُّرطوشي وأبي حامد الغزالي الذي قيل عنه أنَّه أثنى على الأمير يوسف ثناءً كبيرًا، ووجَّه له رسالة تُفتيه بشرعية خلعه لأمراء الطَّوائف وتحثه على الجهاد في سبيل الله ونشر العدل والإحسان إلى الرعية (عنان، 1990، ص530 وما بعدها).

وهناك عوامل أخرى شجعت أيضًا الأمير يوسف على خلع أمراء الأندلس أهمها استمرار الخلاف بين هؤلاء الأمراء بعد معركتي الزَّلاقة وحصن لييط، ممَّا جعلهم ينصرفون عن مواجهة النَّصارى المتربصين بهم، وكذلك كثرة شكاوى الرعية من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض عليهم من قبل أمرائهم، فاشرأبت أعناقهم حينئذ إلى الأمير يوسف بن تاشفين ودعوهُ لكي يخلِّصهم من جورهم.

ومن العوامل التي شجعت أيضًا الأمير يوسف على القضاء على أمراء الطوائف قيامهم بقطع الإمدادات على قوَّاته، وتعاون بعضهم مع ملك قشتالة ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) بتقديمهم له الهدايا والأموال لكي يكون حليفهم ضدَّ التدخل المرابطيّ في بلادهم (ابن بلكين، 1955، ص123).

وبالعودة إلى الحديث عن أسباب عبور أمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمرة الثَّالثة إلى الأندلس وقيامه بخلع أمراء الطوائف فهناك من المؤرخين من يرى بأنَّه كان يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الأندلس لِمَا تنعم به من ثراء، وكان ممَّن تبنى هذا الرأي المرَّاكشي حيث قال: وبلغني أنَّ الأمير يوسف لمَّا عاد إلى مرَّاكش إثر عبوره الأوَّل قال لبعض ثِقاته من وجوه أصحابه كنت أظن أنِّي قد ملكت شيئًا، فلمَّا رأيت تلك البلاد، صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ (المُراكشي، 1998، ص98) غير أنَّ المرَّاكشي يناقض نفسه في هذا الشأن حينما نقل عن الأمير يوسف كلاما آخر يبين فيه أنَّ هدفه من القدوم إلى بلاد الأندلس هو تخليصها من أيدي الرُّوم بعد غفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو، حيث قال: "إنَّما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن

نستنقذها من أيدي الرُّوم لمَّا رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم، وإهمالهم للغزوِ وتواكلهم، وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة ولئن عشت لأعيدنَّ جميع البلاد التي ملكها الرُّوم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين" (المُراكشي، 1998، ص114-115).

وأسرف بعض المؤرخين المستشرقين في لوم الأمير يوسف واتهامه بالغدر والخيانة، والجهل والتعصب، وأخذِ أمراء الطَّوائف على غرة منهم، بعد أن آووه وأعانوه في جهاده ووقفوا بجانبه في نضاله ضدَّ ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) (حسن أحمد محمود، د.ت، ص297).

وهناك من المستشرقين الذين شككوا في نوايا الأمير المرابطيّ فيما يخص خلعه لأمراء الطَّوائف وعبوره الثَّالث لبلاد الأندلس، منهم أشباخ الذي قال: "وعبر يوسف إلى إسبانيا (SPAIN) دون أن يقف على نيَّته أحد متظاهرًا بأنَّه يعتزم محاربة النَّصارى بكلِّ ما وسع" (أشباخ، 1996، ص97).

في حين نجد المراجع الإسلامية المعاصرة تُشيد بموقف الأمير يوسف من أمراء الطَّوائف وترى أنَّ إقدامه على خلعهم والتَّخلُّص منهم عملٌ فريد يُسجل له بالحمد والثَّناء، وأنَّ نيَّته كانت سليمة، وكان غرضه الأساسي هو مقارعة النَّصارى ومحاربتهم.

ونود الإشارة إلى أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين خاض خلال عبوره هذا معركتين، الأولى ضد أمراء الطوائف الذين ثبتت خيانتهم للمسلمين، والثانية ضد الممالك النصرانية للقضاء على سطوتها بإيقاف زحفها المتواصل على بلاد المسلمين في الأندلس وكذا لعزلها عن الصِّراع الذي سوف يخوضه ضدَّ أمراء الطَّوائف المتهالكين.

ولهذا لم يبدأ الأمير المرابطيّ بالإطباق على أمراء الطَّوائف فور عبوره إلى الأندلس خشية تعرُّضه لهجوم نصرانيّ من الخلف، خاصةً بعد أن وصلته أخبار عن الاتِّفاقيات السرِّية التي كان يعقدها صاحب اشبيلية المعتمد بن عبَّاد، وصاحب بطليوس المتوكِّل بن الأفطس، وصاحب غرناطة عبد الله بن بلكين مع ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) ملك قشتالة (Castile) للتَّعاون من أجل ردِّ المرابطين، فتبيَّن للأمير يوسف أنَّه من الضَّروري الإسراع في السير نحو عاصمة القشتاليِّين (Castilians) طليطلة لحصارها واجتياحها، علَّه يستردُّ المدينة ليشفي جرح الأندلس الدامي، فيزداد تعلق أهل الأندلس به (عنان، 1997، ص339) وبالفعل حاصرها حصارًا شديدًا، وعاث المرابطون في أحوازها، وشنُّوا الغارات بأطرافها، وخربوا ضِياعها، وانتسفوا زروعها، ووصلت قوَّات الأمير يوسف في تقدِّمها إلى شمال طليطلة، وحاصرت قلعة رباح التي تسيطر على الطَّريق المؤدي إلى مملكة قشتالة (Castile)، ولم يجرؤ ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) وحليفه سانشو راميرز (Sancho Ramirez) المتحصِّنين في طليطلة على التَّصدي لها (عنان، 1997، ص340)، بيد أنَّ المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية وحصانتها الفائقة بعدم جدوى المحاولة، فتركوا الحصار وارتدَّ الأمير يوسف بقوَّاته إلى الجنوب، كل ذلك ولم يتقدَّم أحد من أمراء الطوائف لمساعدته ضدَّ عدوهم اللَّدود ألفونسو السَّادس (ابن أبي زرع، 1972، ص153) بل راحوا يُراقبون تحرُّكاته عن كثب، جزعين أشدَّ الجزع على سلامتهم (أشباخ، 1996، ص97).

ثمَّ شرع الأمير يوسف في القضاء على أمراء الطوائف واحدًا تلو الآخر، وبدأ بأمير غرناطة عبد الله بن بلكين الزيري، فحاصر مدينته غرناطة مدة شهرين (ابن أبي زرع، 1972، ص154) وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجيَّة حتَّى لا يصله المدد من النَّصارى (عنان، 1997، ص341)، ولمَّا ساءت الأحول بالمدينة المحاصرة، فتح ابن بلكين أبوابها أمام الجيش المرابطي مستسلمًا للأمير يوسف بن تاشفين في شهر رجب سنة 483هـ/1090م (ابن الخطيب، 1975، ص380) وحفظ يوسف

عهده لابن بلكين فلم يتعرض له ولأهله بأي سوء ثمَّ أرسله إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى سبتة فمِكناسة ثمَّ مرَّاكش التي استقرَّ بها حتَّى تُوفِّي (ابن أبي زرع، 1972، ص154).

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضمِّ غرناطة إلى دولته، وجَّه جيشه نحو مالقة وفيها "تميم بن بلكين" شقيق الأمير عبد الله فقبض عليه غدرًا وحيلةً وحُمل مكبلًا إلى العُدوة، ثمَّ أرسله إلى السُّوس ومنها إلى مِكناسة التي التقى فيها بأخيه عبد الله، ثمَّ نقله إلى مرَّاكش (ابن بلكين، 1955، ص162-163) (ابن أبي زرع، 1972، ص154).

حينما تمكَّن الأمير يوسف من الاستيلاء على غرناطة ومالقة، قَدِم صاحب اشبيلية المعتمد بن عبَّاد وصاحب بطليوس المتوكِّل بن الأفطس لتهنئته بالنَّصر، ولكنَّ أمير المسلمين أعرض عنهما واستقبلهما بجفاء (مجهول، 1979، ص71-72)، فانصرفا إلى بلادهما خائبين، وأدرك كل منهما أنَّ النِّهايَّة آتية لا ريب فيها، وأنَّ مصيرهما سوف يكون مثل مصير الأمير عبد الله وأخيه تميم، وقال المعتمد لحليفه المتوكِّل بن الأفطس "والله لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلكين" (ابن عذارى، 1998، ص144).

ولمَّا عاد المعتمد بن عبَّاد إلى بلاده سارع إلى عقد تحالف مع ملك قشتالة ألفونسو السَّادس ضدَّ الأمير يوسف بن تاشفين، وقد وقعت في يد هذا الأخير بعض المراسلات السريَّة الموجهة من ابن عبَّاد إلى ملك قشتالة ألفونسو السَّادس، فاستدعاه للتشاور فامتنع المعتمد عن اللِّقاء خوفًا من غدر الأمير يوسف به. وحثه أيضًا على تطبيق أحكام الشَّرع، وألَّا يفرض الضَّرائب المخالفة لتعاليم الإسلام، وأن يرابط على الثُّغور للدِّفاع عن أراضي المسلمين، فامتنع ابن عبَّاد عن الإجابة لهذه المطالب، فازداد الأمير يوسف إصرارًا على قتاله خاصَّة أنَّه كسب تأييد الفقهاء في هذا الأمر (ابن بلكين، 1955، ص169).

ولكنَّ الأمير يوسف عاد إلى المغرب في شهر رمضان سنة 483هـ/1090م واستقرَّ بمرَّاكش، وقدَّم على الأندلس قائده سِير بن أبي بكر اللَّمتوني وفوَّض إليه جميع أموره (ابن أبي زرع، 1972، ص154).

وشرع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مباشرة بعد عودته لبلاد المغرب في إرسال عسكره من سبتة إلى بلاد الأندلس، وسيَّر أربعة فرق من الجيوش كل واحدة منها توجهت إلى مدينة من المدن للاستيلاء عليها، فاستولى القائد "سِير بن أبي بكر" على طريف في شوال سنة 483هـ/ديسمبر 1090م (ابن بلكين، 1955، ص170)، واستولى القائد بطي بن إسماعيل على جيان، وساعد القائد محمَّد ابن الحاج على الاستيلاء على قرطبة يوم 3 صفر 484هـ/26 مارس سنة 1091م (الضبي، 1989، ص94)، كما استولى المرابطون على قلعة رباح، ومدينتي بيَّاسة وأُبدة، وحصني البلاط والمَدُورُ، والصَّخيرة وشقورة في أقلَّ من شهر (ابن أبي زرع، 1972، ص154) وعلى قرمونة في 17 ربيع الأوَّل 484هـ/10 ماي 1091م، واشبيلية يوم 22 رجب 484هـ/8 سبتمبر 1091م (ابن بلكين، 1955، ص170)، واستولوا أيضًا على بطليوس ومدن غرب الأندلس، وكذلك مدن شرق الأندلس، المرية، مرسية، وبلنسية التي خلصوها من أيدي السيد القمبيطور (The Cid Qambitur) في رمضان سنة 495هـ/ماي 1102م (ابن عذارى، 1998، ص42) ولم يبق خارج سلطة الأمير يوسف غير إمارة سرقسطة التي يحكمها بني هود (مجهول، 1979، ص74-75) (سعدون عبَّاس نصر الله، 1985م، ص143 وما بعدها).

6. الجواز الرابع للأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

بعد أن تمكَّن المرابطون من الاستيلاء على بلنسيَّة، أصبحت بلاد الأندلس بأسرها تحت لواء واحد هو لواء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، هذا الأخير أدرك يقينًا أنَّ هذه البلاد واسعة الأرجاء بحاجة إلى من يدير شؤونها أحسن إدارة لأنَّها مازالت في حالة غير مستقرّة، حيث لم تنتهي بعد مخلَّفات زوال حكم أمراء الطَّوائف الأولى، وكذلك لتربص العدوِّ النَّصرانيّ بها، ولأجل ذلك، قرَّر الأمير يوسف العبور إلى الأندلس للمرَّة الرَّابعة سنة 496هـ/1103م (ابن الخطيب، 1975، ص521) كما أنَّه أراد بعبوره هذا، أن يضع أسسًا ثابتة لدولته الجديدة التي جمعت بين المغرب والأندلس (حسن أحمد محمود، د.ت، ص321)، وأن يتجول فيها للنَّظر في مصالحها، وقد اصطحب معه ابنيه الأميرين أبي الطاهر تميم وأبي الحسن عليّ (مجهول، 1979، ص77).

وبعد أن وقف الأمير يوسف على حسن سير الإدارة في الولايات وشكر القادة والولَّاة على حرصهم في تنفيذ أوامره (أشباخ، 1996، ص117)، قصد إلى قرطبة لينجز المهمَّة التي قدِم في الواقع من أجلها إلى الأندلس وهي أخذ البيعة لولده أبي الحسن عليّ (عنان، 1997، ص372).

جمع الأمير يوسف جميع أمراء لمتونة، وأشياخ البلاد وفقهاءها، ورؤساء الأندلس في مدينة قرطبة (ابن عذارى، 1998، ص42-43) وأخذ البيعة منهم جميعًا لولده عليّ، وذلك في شهر ذي الحجَّة سنة 496هـ/سبتمبر 1103م، وأمر كل هؤلاء المجتمعين بأن يؤدُّوا إليه يمين الولاء والطَّاعة باعتباره أميرًا لهم مستقبلًا (ابن الخطيب، 1975، ص520-521).

وكان يوسف قد آثر ولده عليًا بولاية العهد لِما آنسه فيه من الورع والنَّباهة والحزم (عنان، 1997، ص372) ولكونه أكثر أهليَّة للاضطلاع بجليل الأمور وخطيرها ورآه أكثر اقتدارًا على تلقي أعباء الحُكم (أشباخ، 1996، ص118)، ولكن ألزمه من أجل تقديمه لولاية العهد مجموعة من الشروط من أهمُّها ترتيب سبعة عشر ألف فارس موزعة على قواعد الأندلس، يكون منها في إشبيليَّة سبعة آلاف فارس، وبقرطبة ألف فارس، وبغرناطة ألف فارس، وأربعة آلاف فارس في شرق الأندلس، وباقي العدد يوزع على ثغور المسلمين للمرابطة في الحصون المجاورة للعدوِّ (مجهول، 1979، ص80).

كما أنفذ الأمير يوسف قبل وفاته وصية لولده عليّ بها ثلاثة بنود، الأوَّل أن لا يُهيِّج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة، والثَّاني أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة وأن يجعلهم حائلًا بينه وبين النَّصارى، والثَّالث أن يقبل من مُحسن أهل قرطبة ويتجاوز عن مُسيئهم (مجهول، 1979، ص82-83).

وأصدر الأمير يوسف أوامره بأن يُنقش اسم ولي عهده إلى جانب اسمه على السِّكة فصدرت النُّقود تحمل في إحدى وجهيها "لا إله إلا الله، الأمير عليّ بن الأمير يوسف بن تاشفين" وظلَّ اسمه يُكتب على السِّكة إلى جانب اسم أبيه من سنة 497هـ/1104م إلى سنة 500هـ/1106م (حسن أحمد محمود، د.ت، ص346-347)، وكذلك أمر بالدَّعوة له على المنابر في خطب الجمعة.

جدير بالذكر أنَّ الأمير يوسف، عبر إلى الأندلس من أجل تنظيم أمور الحكم، وتفقُّد أحوال البلاد والعباد، وعقد البيعة لولده عليّ، ولكنَّه لم ينس المهمَّة السامية التي كان دائمًا يحرص على القيام بها، ألا وهي حرب العدوِّ النَّصراني و إيقاف تهديده لبلاد المسلمين، فاتخذَّ جوازه هذه المرَّة أيضًا طابع الجهاد (عنان، 1997، ص371)، فكان حريصًا أشدَّ الحرص على تجهيز

الجيوش للمرابطة على الثُّغور مع العدوِّ، ومطاردة فُلوله المرتدَّة إلى معاقلها وحصونها في طليطلة وأحوازها (مجهول، 1979، ص80).

فقد جهَّز جيشًا اتجه نحو الحصون الواقعة شرق الأندلس، فاستولوا على مُربيطر، المنارة، السَّهلة وسقطت البونت (Alpuente) في أيديهم عام 496هـ/1103م (عنان، 1997، ص262).

وتابع المرابطون تقدمهم نحو الشَّمال واستولوا على مدينة شنتمريَّة الشرق في الثَّامن رجب 497هـ/5 أفريل 1104م إثر وفاة أميرها عبد الملك بن رزين، الذي أعلن قبل وفاته طاعته للأمير يوسف، ولكنَّ المرابطين خلعوا ابنه يحي الذي خلفه في الحكم وضمُّوا شنتمريَّة الشرق لملكهم (ابن عذارى، 1998، ص43).

وبعد عقد البيعة لابنه علي، وضبط أحوال الأندلس عاد الأمير يوسف إلى بلاد المغرب سنة 497هـ/1104م واستقر بمراكش، وفي أواخر عام 498هـ/1104م مرض مرضًا شديد، اعتلت صحته بسببه، وأدت إلى وفاته يوم الاثنين الثالث من المحرم سنة 500هـ/1106م (ابن الخطيب، 1964، ص252) بعد أن بلغ من العمر قرنًا بكامله، ملك فيه سبعة وأربعين سنة (ابن أبي زرع، 1972، ص137).

7. خاتمة:

توصلت مع نهاية هذا البحث للعديد من النتائج أهمها:

- بلاد الأندلس بالنسبة للمرابطين كانت أرض جهاد ورباط، فقد ضحوا بالغالي والنفيس للدفاع عن هذه الأرض.
- سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م كان السبب الرئيسي في بداية جواز الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى الأندلس.
- عبور الأمير يوسف بن تاشفين أربع مرات للأندلس، دليل على أهميتها البالغة بالنسبة له، فهي لا تقل أهميةً عن بلاد المغرب الإسلامي حيث توجد عاصمة دولته مراكش.
- حقَّق الأمير يوسف بن تاشفين عدة إنجازات خلال جوازه المتكرر للأندلس، ففي الجواز الأول انتصر في معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م على ألفونسو السَّادس (Alfonso VI) ملك قشتالة (Castile)، وفي الجواز الثاني حقَّق النصر في معركة حصن لييط (Aledo) عام 481هـ/1088م، وفي الجواز الثالث سنة 483هـ/1090م قضى على أمراء الطَّوائف المتخاذلين وضمِّ الأندلس للدَّولة المرابطيَّة، وفي عبوره الرابع والأخير عام 496هـ/1103م بايع ولده علي بالإمارة بعده، وقام بتنظيم شؤون الأندلس السياسية والإدارية والعسكرية.
- أوصى الأمير يوسف بن تاشفين ولده وخليفته في السلطة الأمير علي، بالإهتمام بالجهاد في الأندلس ومقارعة النَّصارى، وقد تحققت وصيته فاهتم الأمير علي أيَّما اهتمام بهذه البلاد وعبر إليها بدوره أربع مرات حقَّق فيها انتصارات هامة على الممالك النَّصرانية.

8. المصادر و المراجع:

-ابن بلكين ع. ا. (1955). *مذكرات الأمير عبد الله – أو – كتاب التّبيان*. مصر: دار المعارف.

الحميري ع. ا. (1975). *الرَّوضُ المعطار في خبر الأقطار*. بيروت: مكتبة لبنان.

ابن عذارى ا. (1983). *البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تأريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري* (ط3). بيروت: دار الثقافة.

ابن خلكان أ. ا. ش. ا. (1994). *وَفياتُ الأعيانِ وأنباءُ أبناءِ الزمانِ*. بيروت: دار صادر.

ابن عذارى ا. (1998). *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (ط5). بيروت: دار الثقافة.

الضبي أ. ج. أ. (1989). *بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس*. القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

ابن أبي زرع ا. (1972). *الأنيس المُطرِب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*. الرباط: دار المنصورة للطِّباعة والوراقة.

ابن الكردبوس أ. م. ع. ا. ا. (1971). *تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء*. مدريد: مطبعة معهد الدِّراسات الإسلاميَّة.

ابن الخطيب ل. ا. (1975). *تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام*. الدار البيضاء: دار الكتاب.

ابن الخطيب ل. ا. (1975). *الإحاطة في أخبار غرناطة*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

المراكشي ع. ا. (1998). *المُعجب في تلخيص أخبار المغرب* (ط1). بيروت: دار الكتب العلميَّة.

ابن الوردي ز. ا. ع. ب. م. . (1996). *تاريخ ابن الوردي – أو- تتمة المختصر في أخبار البشر* (ط1). بيروت: دار الكتب العلميَّة.

مجهول م. أ. م. أ. ا. ا. ا. (1979). *الحُلل الموشيَّة في ذكر الأخبار المرَّاكشيَّة* (ط1). الدار البيضاء: ار الرَّشاد الحديثة.

طقوش م. س. (2008). *تاريخ المسلمين في الأندلس 91-898هـ/710-1492م*. بيروت: دار النفائس.

سعدون عباس ن. ا. (1985). *دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين* (ط1). بيروت: دار النَّهضة العربيَّة.

حسن أ. م. *قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى*. القاهرة: دار الفكر العربي.

الفقي ع. ا. ع. ا. (1999). *دراسات في تاريخ المغرب والأندلس*. القاهرة: دار الفكر العربي.

عنان م. ع. ا. (1990). *دولة الإسلام في الأندلس- العصر الثَّالث- عصر المرابطين والموحِّدين في المغرب* (ط2). القاهرة: مكتبة الخانجي.

عنان م. ع. ا. (1997). *دولة الإسلام في الأندلس- العصر الثَّاني- دول الطَّوائف منذ قيامها حتَّى الفتح المرابطي* (ط4). القاهرة: مكتبة الخانجي.

أشباخ ي. (1996). *تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين* (ط1). القاهرة: مكتبة الخانجي.

دوزي ر. (1995). *المسلمون في الأندلس*. مصر: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب.

Ibn blkyn. (1955). Mudhakkirāt al-Amīr‘AbdAllāh – aw – Kitāb alttibyān, taḥqīq I. Līfī Brūfinsāl, Miṣr : Dār al-Ma‘ārif.

-Lḥimyry. (1975). alrrawḍ ualm‘ṭār fī khabar al-aqṭār, ḥqqaqh Iḥsān‘bbās, Bayrūt : Maktabat Lubnān.

-Ibn al-Khaṭīb. (1975). al-iḥāṭah fī Akhbār Gharnāṭah, ḥqqaq naṣṣahu wa-waḍa‘a muqaddimatahu wa-ḥawāshiyahu mḥmmad‘AbdAllāh‘Inān, ṭ2, mj3, mj4, al-Qāhirah : Maktabat al-Khānjī.

-Ibn al-Khaṭīb. (1975). Tārīkh al-Maghrib al-‘Arabī fī al-‘aṣri al-Wasīṭ al-qism al-thālith min Kitāb a‘māl al-A‘lām, taḥqīq wa-ta‘līq Aḥmad Mukhtār al-‘Abbādī wa mḥmmad Ibrāhīm al-Kattānī, al-Dār al-Bayḍā’: Dār al-Kitāb.
-Ibn Khallikān. (1994). Wafyātu al’‘yāni w’nbā’uabnā’ialzmāni, taḥqīq Iḥsān‘bbās, mj7, Bayrūt : dārṣādr.
-Ibn Abī zar‘. (1972). al-Anīs almuṭrib brwḍ al-qirṭās fī Akhbār mulūk al-Maghrib wa-tārīkh Madīnat Fās, al-Rabāṭ : Dār al-Manṣūrah llṭṭibā‘h wa-al-Wirāqah.
-Alḍḍaby. (1989). bughyh al-multamis fī Tārīkh rijāl ahl al-Andalus, taḥqīq Ibrāhīm al-Abyārī, Ṭ1, al-Qāhirah : Dār al-Kitāb al-Miṣrī, Bayrūt : Dār al-Kitāb al-Lubnānī.
-Ibn ‘dhārá al-Marrākushī. (1983). al-Bayān almughrb fī Akhbār al-Andalus wa al-Maghrib, ta’rīkh ifryqyt wā lmghrb min al-Fatḥ ilá al-qarn al-rābi‘ al-Hijrī, taḥqīq wa-murāja‘at J. S. kwlān wa I. lyqy brwqnsāl, ṭ3, j3, Bayrūt : Dār al-Thaqāfah.
-Ibn ‘dhārá al-Marrākushī. (1998). al-Bayān almughrb fī Akhbār al-Andalus wa-al-Maghrib, taḥqīq Iḥsān‘bbās, ṭ5, j4, Bayrūt : Dār al-Thaqāfah.
-Ibn al-Kardabūs. (1971). Tārīkh al-Andalus wa-huwa qiṭ‘ah min Kitāb al-Iktifā’ fī Akhbār al-khulafā’, taḥqīq Aḥmad Mukhtār al‘bbādy, Madrīd : Maṭba‘at Ma‘had al ddirāsāt al’slāmyyah.
-Majhūl, li-mu’allif Andalusī min ahl al-qarn al ththāmn al-Hijrī. (1979). alḥull a lmwshyyah fī dhikr al-akhbār almurrākshyyah, taḥqīq Suhayl Zakkār wa-‘Abd al-Qādir Zamāmah, Ṭ1, al-Dār al-Bayḍā’ : Dār al rrashād al-ḥadīthah.
-Almurrākshy, ‘Abd al-Wāḥid. (1998). almu‘jb fī Talkhīṣ Akhbār al-Maghrib, waḍ‘ ḥawāshīhi Khalīl‘ Umrān al-Manṣūr, Ṭ1, Manshūrāt mḥmmad‘Alī Bayḍūn, Bayrūt : Dār al-Kutub al‘lmyyah.
-Ibn al-Wardī. (1996). Tārīkh Ibn al-Wardī – aw-Tatimmat al-Mukhtaṣar fī Akhbār al-bashar, Ṭ1, j1, Bayrūt : Dār al-Kutub al‘lmyyah.
- Aḥmad Maḥmūd, Ḥasan. (D. t). qiyām Dawlat al-Murābiṭīn ṣafḥah mushriqah min Tārīkh al-Maghrib fī al-‘uṣūr al-Wusṭá, al-Qāhirah :Dār al-Fikr al-‘Arabī.
- Sa‘dūn‘Abbās Naṣr Allāh. (1985). Dawlat al-Murābiṭīn fī al-Maghrib wa-al-Andalus‘ ahd Yūsuf ibn Tāshfīn Amīr al-Murābiṭīn, Ṭ1, Bayrūt :Dār al nnahḍha l‘rbyyah.
-Ṭaqqūsh mḥmmad Suhayl. (2008). Tārīkh al-Muslimīn fī al-Andalus 91-898h/710-1492m, Bayrūt :Dār al-Nafā’is.
-‘Inān mḥmmad‘ AbdAllāh. (1990). Dawlat al-Islām fī al’ndls - al-‘aṣr alththālth -‘aṣr al-Murābiṭīn wā lmwḥḥidyn fī al-Maghrib – al-qism al’wwal‘ aṣr al-Murābiṭīn wa-bidāyat al ddawlha lmwḥḥiddīh, ṭ2, al-Qāhirah :Maktabat al-Khānjī.
-‘Inān, mḥmmad‘ AbdAllāh. (1997). Dawlat al-Islām fī al’ndls - āl‘ṣr alththāny – duwal alṭṭawā’f mundhu qiyāmihā ḥttá al-Fatḥ al-Murābiṭī, ṭ4, al-Qāhirah :Maktabat al-Khānjī.
-al-Fiqī‘ Iṣām addīn‘Abd al-Ra’ūf. (1999). Dirāsāt fī Tārīkh al-Maghrib wa-al-Andalus, al-Qāhirah :Dār al-Fikr al-‘Arabī.
-Ashbākh Yūsuf. (1996). Tārīkh al-Andalus fī‘ ahd al-Murābiṭīn wā lmwḥḥidyn, tarjamat wa-ta‘līq mḥmmad‘ AbdAllāh ‘Inān, ṭ2,, al-Qāhirah: Maktabat al-Khānjī.
-Dwzy rynhārt. (1995). al-Muslimūn fī al-Andalus, tarjamat wa - ta‘līq wa – taqdīm Ḥasan Ḥabashī, j3, Miṣr: al-Hay’ah almṣryyah al‘āmmah lil-Kitāb.

المراجع باللغة الأجنبية:

Clôt, A . (1999): *l’Espagne Musulmane*, éditions Perrin, Paris.
El Fasi, M. (1990): *Histoire generale de L’Afrique- L’Afrique du VII^e au XI^e siècle*, tome3, Unesco/NEA, France.